مأساة واقعية

مصرع بائسة

لسعادة الاستاذ

محمد رضا السيد سلمان المحامي

كان وقع المصاب عليها شديداً ، فقد مات زوجها الذي كان يرعاها ويحدب عليها ويكلؤها بعنايته ويوفر عليها وعلى طفليها اسباب السعادة والنعيم . لقد اخترمته المنية وهو في ريعان شبابه وغضارة عمره ، ولم يمهله المرض اكثر من خمسة ايام هوى بعدها الى اعماق القبر وهو لايزال غضاً طريا ، وبقيت (ش) تندب حظها العاثر ، وقد غمرها حزن طاغ اليم . ولم يترك لها زوجها مايقيم اودها مع طفليها اللذين كانا كطيرين صغيرين بريئين لا يحلمان الا باللعب مع اترابهما ، والاستغراق في لهوهما ومرحها البريء دون ان يشعرا بفداحة الخطب ، ولا بعظم النازلة التي ايتمتها على صغرها ، وحرمتها برالوالد وحنانه ورعايته . وقد اضطرت الام المنكوبة للذهاب لدار اهلها تحت وطأة الحاجة التي اخذت تحيط بها وبطفليها وتشدد عليهم الخناق ، وبقيت حوالي السنة الواحدة حيث تقدم (هـ) يطلب يدها من اخوتها مدعياً انه من عائلة معروفة كبيرة الجاه جليلة القدر ، وانه يشتغل بائع تبغ في قضاء (ك) وله محل معروف فيه . وقد اغرى اسم تلك العائلة الكبيرة المنتشرة داخل العراق وخارجه اخوة (ش) ؛ ورأوا ان مصاهرتها فخرومنة طوقهم بها ذلك السيد الشريف باختياره اختهم دون النساء ، فزوجوه بها وبقي معها بدار اهلها مايقرب من الشهر وهو معزز مكرم ، ثم اخذها بعد ذلك الى محل عمله تاركا ولديها على جدتها لتقوم بتربيتها ،

لقد وصلا بغداد واخذ يجوس بها خلال المحلات والدور حتى ادخلها في دار من محلة بعيدة منزوية ، وعرفها بامرأتين كانتا فيها زعم ان احداهما امه والاخرى اخته ، وقد رحبتا بها ترحيباً حارا منقطع النظير انساها تعب الطريق ووعثاء السفر ، ثم تركها في تلك الدار . وبقيت (ش) تنتظر اوبته طيلة ذلك اليوم فلم يعد . وكانت ترى اناساً كثيرين غريبي الاطوار ، مختلفي المنازع والازياء ، لا تجانس بينهم ولاتقارب يترددون على الدار ويلجونها بدون تكلف ويقومون بحركات مريبة ؛ فحدثتها نفسها بان وراء الاكمة ماورائها ، واوجست من كل ذلك خيفة تحققت في اليوم الثاني ، عندما تقدمت اليها ام زوجها المزعومة تطلب منها ان ترافق احد الزبائن الى غرفة منعزلة ، فتجلت لها الحقيقة الرهيبة ، وهالها الفخ الذي وقعت فيه ، فانهالت على تلك العجوز الوقحة بالضرب وانواع السباب والشتم ، ثم نهضت تريد الخروج من الدار ، فتعلقت بها العجوز وابنتها المزعومة وامرأتان اخريان كانتا في الدار ، وارغمتها بعد عراك شديد على البقاء ، ثم اوصدن دونها باب الغرفة وبقين يحرسنها بانتباه ، فشعرت حينذاك بهول الكارثة التي ستحل بها ، واخذت تندب سوء حظها ، وتذرف الدموع الغزيرة على ما آلت اليه حالها دون ان يكون لها يد بذلك ، وفكرت بالخلاص والافلات من ذلك الفخ مرات عديدة فلم تفلح ، لان المراقبة كانت حذرة ، ولم يسمح لها بالخروج من الدار مطلقاً انها سجينة تلك العجوز واسيرتها . ولكن كيف يتاح لها الخلاص من سجنها ؟ انها لاتطيق الصبر على تحمل عار الرذيلة انها ابية كبيرة النفس ، لاترضى لعائلتها المحافظة ان تتلطخ بالعار . وكيف تبيح لنفسها تدنيسها وتلويثها وهي لاتزال تحمل في قرارة نفسها جميع امجاد العائلة ومواريثها في حسن السمعة والصيت ؟ أيمثل هذه السهولة تريد منها تلك العجوز الفاجرة ان تبذل اعز شيء لديها ؟ . انها كرامة العائلة وشرفها وهي تحرص على محافظتها ولو ببذل النفس ؟ . انها

لا ترضى لاخوتها ان يظهروا امام الناس مطأطئي الرؤوس منخفضي الهامات ، يعلوهم ذل العار وتذيب نفوسهم نظرات الهوان والازدراء . فلا بد لها اذا ان تجعل جداً . لهذه المأساة و تعطي لتلك العجوز المستهينة بالاعراض درساً في الشرف . ولكن كيف يتم لها ذلك ؟ اتقدم على الانتحار ؟ ليس هناك من الآلات مايمكنها من تنفيذ ذلك ! . .

استغيث ؟ . لقد بح صوتها من الاستغاثة والاستنجاد دون ان يغيثها انسان ؛ ان صوتها لاينفذ من جدران سجنها للخارج وقدرأت ان لا تظهر ضعفها واستكانتها امام تلك النمرة الجائعة . ولكنها تريد منفذاً للحرية . تريد وسيلة تنجو بها من براثن النمرة . انتطح برأسها جدار الغرفة فلعل ذلك ينقذها من عذابها ؟ ولكن من يضمن لها انها ستموت دون ان يطول المها وعذابها ؟ اتخنق نفسها بيديها ؟ ان نتيجة ذلك ايضا غير مضمونة . لقد اضحت كالمجنونة او كالأسد الهائج وهي تدور في غرفتها دون ان تعي شيئا مما تقوم به ، فتارة تهجم على الباب تهزها هزا عنيفاً ولكن لاتؤثر فيها هزاتها لانها محكمة الصنع والغلق . وطورا تصرخ وتولول وتبكي ولكن دون جدوى حتى اعياها الجهد والتعب فوقعت على ارض الغرفة خائرة القوى منهارة الاعصاب .

رأت العجوز بثاقب فكرها ان تدع العاصفة تمر بسلام فلم تلحف عليها بالطلب وايقنت انها ستلين بعد استعصاء وترعوي بعد جماح ، وان الوقت كفيل باخضاعها وارغامها على الرضوخ والاستسلام . لقد افهمتها برفق بانها لم تكن اماً لزوجها (ه) ولكنها تمتهن الدعارة ، وانها اشترتها منه بمبلغ جسيم ، وليس لها مناص من اطاعتها وتلبية طلباتها كسائر النساء اللاتي كانت قد اشترتهن من ذلك الشخص ، ثم انها شددت بالتضييق عليها ، واستعملت معها سلاحا مريعاً فاتكاً وهو الجوع . فلم تقدم لها طعاما مدة يومين ، حتى انهكها الجوع وخارت قواها واصابها الوهن والاعياء والعجوز لاتفتر عن التردد عليها خلال تلك المدة ، وهي تغريها بالخضوع والاستسلام ، وتمنيها بالسعادة والنعيم . وكانت تخاطبها بلين واستعطاف لتكف عن عنادها فانها كانت يوما ماتحرص مثلها على عفافها وشرفها ، ولكنها وقعت اخيرا في الهوة وقنعت بقسمتها دون ان تبدي تذمراً او تمردا على ما آل اليه حالها . ثم استمرت تقول . ليس من الحكمة ان تشقى المرأة بعد ماهوت بل ينبغي ان تتناسى ايامها الاولى المليئة بالطهر لتخفف عن نفسها حدة البلية ووقع المصاب . انها تنفس على ذلك الجسم الجميل البض ان يهزل ويضعف . انها لاترضى لذلك الشباب الغض ان يذبل ويذوى تحت لفح الهموم والاوصاب ينبغي لك ان تكرعي الكأس حتى الثمالة ولاتفكري في ايامك الاولى ، فالانسان معروض لنكبات ليس له يد في وقوعها وليس له ان يعترض على ماقدر له . لقد اختبرت الكثيرات من النساء اللاتي طلقن حياة الطهر وخاصة اللاتي اشتريتهن من (ه) فلم يبدين من الاصرار والعناد ما ابديتيه ، بل انهن قنعن بحظهن العاثر واندفعن مع التيار يتمتعن بصنوف من اللذة والنعيم ، وان كن يتذكرن ايامهن الاولى أحياناً ولكن الذكرى تكون خاطفة كومض البرق ثم تتلاشى في خضم الحياة الصاخب المزبد . ان الحزن يا ابنتي ليس بالوسيلة الناجعة لمعالجة النكبة وقد اقبلت على محيط جديد ينبغي لك ان تستقبليه بروح جديدة وعقلية متجددة ولا تبخسي نفسك حظها في اللذة فانت لاتزالين في مقتبل العمر ، وحرام عليك وأد هذا الجمال النادر وعدم تعريضه الى النور ، فما الحياة الا لهو ولعب ومسرات ينبغي للعاقل ان ينتهز فرصتها كلما كان قادرا على انتهازها والتمتع بها .

لم تطق (ش) ان تسمع اكثر من ذلك الهراء والسخف فتفجرت من فمها المضطرم بالغيظ الفاظ تلتهب بالحقد والضغينة . اخسئي ايتها العجوز النحس . انك لاتتذوقين حياة الشرف والطهارة . انك تقطرين دنسا ونذالة وفجورا ؛ وليس لك ان تجعلي من نفسك واعظة تعظ الاطهار .

أتضنين انني افرط بعفافي وشرفي بمثل هذه المغريات والالفاظ ! لقد طاش سهمك وتربت يداك . اتدرين ان جوهرة العفاف لاترمى في الاوحال والاوساخ ولاتلقى في القاذورات ؟ فان

(البقية على ص ٩٨)